الفصل الثاني

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في العناية بالسرائر

أولاً: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (قال مقاتل: تظهر وتبدو. وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له، قال عبدالله بن عمر ﷺ: يبدي الله يوم القيامة كل سر، فيكون زينا في الوجوه، وشيناً فيها. والمعنى تختبر

السرائـر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبـير عن الأعـمال بالسر لطيفة، وهـو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمـن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحـاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانـت سريرتـه فاسـدة كان عمله تابعـاً لسريرتـه، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الـذي يبدو عليـه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها)[1].

ويقـول الطـبري رحمـه الله تعالى عنـد هذه الآيـة: (عن قتـادة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ إن هذه السرائر مختـبرة فأسروا خيراً أو أعلنوه إن استطعتم ولا قوة إلا بالله)[2].

ويقـول سـيد قطـب رحمـه الله تعـالى: (إنـه - الله الذي أنشـأه ورعـاه - إنـه لقادر على رجعـه إلى الحيـاة بعد الموت، وإلى التجدد بعد البلى، تشهد النشأة الأولى بقدرته، كما تشهد بتقديـره وتدبيره. فهذه النشـأة البالغة الدقة والحكمة تذهب

(١) بدائع التفسير: (٥/ ٨٥).
(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٣٥٩).

كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾.. السرائر المكنونة، المطوية على الأسرار المحجوبة.. يوم تبلى وتختبر، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر، وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة بالسواتر! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.. ما له من قوة في ذاته، وما له من ناصر خارج ذاته.. والتكشف من كل ستر، مع التجرد من كل قوة، يضاعف شدة الموقف، ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير، وهو ينتقل من الكون والنفس، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة، إلى نهاية المطاف هناك، حيث ينكشف ستره ويكشف سره، ويتجرد من القوة والنصير)[1].

الآية الثانية:

مر بنا قوله ﷻ عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨٨٠).

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (ونستشف من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ مدى شعوره بهول اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض، وصفائه من الشهوات والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون، وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير)[1].

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٦٠٤).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول، والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب. وفي الآثر: إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتهما كما بين المشرق والمغرب. فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل - لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله - عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق... وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[1].

وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحداً أن يحصل له مثله ممن بعدهم. وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

(١) البخاري: (٣٦٧٣)، مسلم: (٢٥٤٠).

وهـذا مما يُعرف به أن أبا بكـر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عيَّاش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهكذا سـائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسـول، مؤمنـين بـه مجاهديـن معه، إيـمان ويقـين لم يشركهـم فيه من بعدهم)[1].

ويقـول الشـوكاني رحمه الله تعـالى: (أي لـن يصعد إليه ولا يبلـغ رضـاه ولا يقع موقـع القبول منه لحـوم هذه الإبل التي تتصدقون بها، ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها، من حيث إنها لحـوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾. أي: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، ويصل إليـه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه)[2].

ومثـل هـذه الآيـة قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(١) منهاج السنة: (٦/ ٢٢٢-٢٢٣) باختصار.
(٢) فتح القدير: (٣/ ٤٥٥).

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: ودعوا أيها الناس علانية الإثم وذلك ظاهره، وسره وذلك باطنه.

كذلك حدثنا بشر بن معاذ. قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ﴾. أي: قليله وكثيره، وسرّه وعلانيته.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾. قال: سرّه وعلانيته.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام: عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس، في قوله ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ﴾. يقول: سره وعلانيته، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. قال: سرَّه وعلانيته)[1].

(١) تفسير الطبري: (٨/ ١٣-١٤).

ويقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (نهى الله ﷻ عباده عن اقتراف الإثم الباطن، والظاهر أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب... وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي خصوصاً معاصي القلب: كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة)[1].

الآية الخامسة:

قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩-١١].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (أي هلا علم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾. أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخص خُبره بذلك

(١) تفسير السعدي: (ص ٢٧١) المطبوع في مجلد واحد.

اليـوم مـع أنه خبير بهم في كل وقـت، لأن المراد بذلك الجزاء على الأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه)[1].

الآية السادسة:

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يُسرُّه، ويوسـوس في صـدره، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسـان، وهو العرق المكتنـف لثغـرة النحر، وهـذا مما يدعـو الإنسـان إلى مراقبة خالقه المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره)[2].

الآية السابعة:

قولـه ﷻ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

---

(١) تفسير السعدي: (ص ٩٣٣).

(٢) تفسير السعدي: (ص ٨٠٥).

أي: (يعلم ما خطر على القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ مما لم يخطر يعلم أنه يخطر في وقته وعلى صفته)[1].

الآية الثامنة:

قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

الآية التاسعة:

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السموات والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت، فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث

(١) المرجع السابق: (ص ٥٠٣).

رسول الله ﷺ، أو تصور وبحث في علم ينفعه أو نصح لعباد الله)[1].

الآية العاشرة:

قوله ﷻ في وصفه لصاحب السريرة الفاسدة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (هذا المخلوق الذي يتحدث، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير، ومن الإخلاص، ومن التجرد، ومن الحب، ومن الترفع، ومن الرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس.. هذا الذي يعجبك حديثه، تعجبك ذلاقة لسانه، وتعجبك نبرة صوته، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح.. «ويشهد الله على ما في قلبه».. زيادة في التأثير والإيحاء، وتوكيداً للتجرد والإخلاص، وإظهاراً للتقوى

(١) تفسير السعدي: (ص ١٢٨).

وخشية الله.. «وهو ألد الخصام»! تزدحم نفسه باللدد والخصومة، فلا ظل فيها للود والسماحة، ولا موضع فيها للحب والخير، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار.

هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه، ويتنافر مظهره ومخبره.. هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان.. حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء، وانكشف المستور، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.. وإذا انصرف إلى العمل، كانت وجهته الشر والفساد، في قسوة وجفوة ولدد، تتمثل في إهلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والإثمار، ومن النسل الذي هو امتداد الحياة بالإنسال.. وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل في كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد.. مما كان يستره بذلاقة اللسان، ونعومة الدهان، والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح.. «والله لا يحب الفساد».. ولا يحب المفسدين الذين ينشئون في الأرض الفساد.. والله لا تخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس، ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذي قد يجوز على الناس في الحياة

الدنيا، فلا يعجبه من هذا الصنف النكد ما يعجب الناس الذين تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر[1].

ثانياً: ذكر بعض الأحاديث الواردة في أهمية السرائر والعناية بها:

- **الحديث الأول**: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشار بأصابعه إلى صدره[2].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (إن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته... ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب)[3].

- **الحديث الثاني**: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[4].

---

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) مسلم: (٢٥٦٤).

(٣) شرح النووي لمسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله.

(٤) البخاري: (٥٢)، مسلم: (١٥٩٩).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى عند هذا الحديث: (وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه)[1].

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح الحديث: (فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح، فلم تنبعث إلا إلى طاعة الله واجتناب سخطه، فقنعت بالحلال عن الحرام. وإذا فسد القلب فسدت إرادته ففسدت الجوارح كلها، وانبعث في معاصي الله ﷻ وما فيه سخطه، بل أسرعت في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق، فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيره، وهو أن يكون سليماً من جميع ما يكرهه الله من إرادة ما يكرهه الله ويسخطه، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته، ومحبته ما يحبه الله وإرادة ذلك وكراهة ما يكرهه الله والنفور عنه. والقلب الفاسد: هو القلب الذي فيه الميل على الأهواء المضلة والشهوات المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هوى النفس)[2].

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: (١/ ٨٢).
(٢) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي: (١/ ١١٦).

• **الحديث الثالث**: عن أبي قلابة عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: مر عمر بمعاذ بن جبل ﷺ وهو يبكي، فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم**»[1].

• **الحديث الرابع**: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يَدَعُ لهم شاذةً ولا فاذةً إلّا اتبعها يَضربها بسيفه. فقيل: ما أجزَأ منّا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**». فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبه. قال فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه. قال فجرحَ الرجلُ جُرحاً شديداً، فاستعجَلَ الموت، فوضع سيفه بالأرض وذُبابَهُ بين ثَدْيَيه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج

(١) المستدرك للحاكم، وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه: (٥١٨٠)، وفي الحلية: (١/ ١٥).

الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهدُ أنك رسول الله. قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنهُ من أهل النار، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلتُ: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبهِ، ثم جُرحَ جُرحاً شديداً فاستعجل الموتَ، فوضع نصلَ سيفهِ في الأرض وذُبابَهُ بين ثَدْيَيْه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول ﷺ عند ذلك: «**إن الرجُلَ ليعملُ عَمل أهل الجنة فيما يَبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**»[1].

والشاهد في هذا الحديث قوله: «**إن الرجُلَ ليعملُ عَمل أهل الجنة فيما يَبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**».

وقد أورد البخاري رحمه الله تعالى هذا الحديث أيضاً في كتاب القدر في باب (العمل بالخواتيم)، وزاد في آخر الحديث: (وإنما الأعمال بالخواتيم).

(١) البخاري: (٤٢٠٢)، ومسلم (١١٢).

وفي هـذا الحديـث دليل على أن العـبرة بصلاح الباطن والسريرة وحسـنهما، لا بصلاح الظاهر فقط، وأنه قد يبدو للنـاس صلاح شـخص في ظاهـره، لكنه يحمل قلبـاً خبيثاً وسريرة فاسـدة، تخذلـه عند الخاتمـة، ويظهرها الله ﷻ عند الموت، فيختم له بها أعاذنا الله من ذلك.

• **الحديـث الخامس**: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**تجـد من شرِّ الناس يـوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»[1].

يـشرح الحديث ابن حجر في فتح الباري فيقول: (قال القرطبـي: إنما كان ذو الوجهـين شر الناس لأن حاله حال المنافـق، إذ هـو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفسـاد بـين النـاس. وقـال النووي: هو الـذي يـأتي كل طائفـة بما يرضيهـا. فيظهـر لها أنـه منها ومخالف لضدهـا، وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتـين، وهي مداهنة محرمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصـلاح بـين الطائفتين فهو محمـود. وقال غـيره: الفرق بينهـما أن المذموم من يزين لكل طائفـة عملها ويقبحه عند

(١) البخاري: (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦).

الأخرى ويذم كل طائفة عند الأخرى، والمحمود أن يأتي لكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى وينقل إليها ما أمكنه من الجميل ويستر القبيح. ويؤيد هذه التفرقة رواية الإسماعيلي من طريق ابن نمير عن الأعمش «الذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء، وهؤلاء بحديث هؤلاء» وقال ابن عبدالبر: حمله على ظاهره جماعة وهو أولى، وتأوله قوم على أن المراد به من يرائي بعمله فيرى الناس خشوعاً واستكانة ويوهمهم أنه يخشى الله حتى يكرموه وهو في الباطن بخلاف ذلك، قال: وهذا محتمل لو اقتصر في الحديث على صدره فإنه داخل في مطلق ذي الوجهين. لكن بقية الحديث ترد هذا التأويل، وهي قوله: «يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»)[1].

• **الحديث السادس**: عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال خرج النبي ﷺ فقال: «**أيها الناس إياكم وشرك السرائر**». قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: «**يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر**»[2].

---

(١) فتح الباري: (١٠/ ٤٩٠).

(٢) صحيح ابن خزيمة: (٩٣٧)، وابن أبي شيبة: (٨٤٠٣).

ثالثاً: الآثار المنقولة عن السلف رحمهم الله تعالى في عنايتهم بالسرائر وخوفهم من فسادها:

- **الأول**: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم للغد، والأمانة ألا تخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل، فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه)[1].

- **الثاني**: قال عثمان رضي الله عنه: (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)[2].

- **الثالث**: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا أفضل منكم، قيل له بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم)[3].

- **الرابع**: عن مجاهد أن رجلاً قدم على ابن عمر فقال له: كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يُحبُّ، وإذا ولَّينا عنه قلنا له غير

(١) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٥٧٢).
(٢) الآداب الشرعية: (١/ ١٧٧).
(٣) صفة الصفوة: (١/ ٤٢٠).

ذلك، قال: (ذاك ما كنا نعد ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)[1].

- **الخامس**: كان أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال: (دعنا عنك، فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه[2].

- **السادس**: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث. أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه. وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا أدري إلى الجنة أم إلى النار)[3].

- **السابع**: عن أبي البختري عن سلمان رضي الله عنه قال: (إن لكل امرئ جوانيا وبرانياً[4]، فمن يصلح جوانيه يصلح برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد برانيه)[5].

---

(١) المطالب العالية: (٣/ ١٨٥).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٦/ ٣٨٢).

(٣) الزهد لابن المبارك (٢٥٠): (١/ ٢٦٢).

(٤) يعني بالجواني والبراني: الباطن والظاهر.

(٥) الزهد لابن المبارك (١٦٨٢): (٤/ ٣٢٣).

• **الثامن**: ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قوله: (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق. وما يُحذَر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥])[1].

وإتماماً للفائدة أسوق شرح ابن حجر رحمه الله تعالى لهذه الآثار إذ يقول: (قوله: (وقال إبراهيم التيمي) هو من فقهاء التابعين وعبادهم، وقوله «مكذباً» يروى بفتح الذال يعني: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي، فيقول: لو كنت صادقاً ما فعلت خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر الذال وهي رواية

(١) البخاري، كتاب الإيمان: (١/ ١٣٥) فتح الباري.

الأكثر، ومعناه أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، فخشي أن يكون مكذباً أي مشابهاً للمكذبين، وهذا التعليق وصله المصنف في تاريخه عن أبي نعيم وأحمد ابن حنبل في الزهد عن ابن مهدي، كلاهما عن سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن إبراهيم المذكور.

قوله: (وقال ابن أبي مليكة. إلخ) هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد. وكذا أخرجه محمد ابن نصر المروزي مطولاً في كتاب الإيمان له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصراً كما هنا، والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلّهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم

خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم. وقال ابن بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت)[1].

- **التاسع**: عن بلال بن سعد قال: (لا تكن وليًّا لله في العلانية وعدوه في السريرة)[2].

- **العاشر**: عن الحسن رحمه الله تعالى قال: (يعد من النفاق اختلاف القول والعمل، واختلاف السر والعلانية، والمدخل والمخرج، وأصل النفاق الذي يبنى عليه النفاق الكذب)[3].

- **الحادي عشر**: قيل لحمدون بن أحمد: (ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة

(١) فتح الباري: (١/ ١١٠-١١١).
(٢) الإخلاص والنية، لابن أبي الدنيا: (ص ٢٤).
(٣) الصمت، لابن أبي الدنيا: (ص ٢٤٠)(٤٨٤).

النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق)[1].

- **الثاني عشر**: عن خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبدالملك فقال: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه. قال: حسبك كيف يضل قوم هذا فيهم[2].

- **الثالث عشر**: عن الحسن رحمه الله تعالى قال: ابن آدم لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أولى بك من علانيتك[3].

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٢٢).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٧٦).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٤٣٦).

• **الرابع عشر**: عن ابن عيينة رحمه الله تعالى قال: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الإحسان وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الظلم)[1].

• **الخامس عشر**: عن نعيم بن حماد قال سمعت ابن المبارك يقول: (ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة)[2].

• **السادس عشر**: عن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة، إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج.

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ١٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٩٧).

إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة[1].

- **السابع عشر**: عن عقيل بن مغفل بن منبه قال سمعت عمي وهب بن منبه يقول: (يا بني اخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق الله فيها فعلك في العلانية، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب موضعه وأبلغه قراره، وان من أسر عملاً صالحاً لم يطلع عليه أحد إلا الله فقد اطلع عليه من هو حسبه، واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره، فلا تخافن على عمل صالح أسررته إلى الله ﷻ ضياعاً، ولا تخافن من ظلمه ولا هضمه، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها ورقها وعودها، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفيا لا يرى منه شيء. كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٤٥).

سريـرة صالحة يصدق الله بهـا علانيته، فـإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتهـا من قبل عرقها فـإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانـت السريـرة هي ملاك الديـن فـإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه ﷻ)[1].

- **الثامـن عـشر**: عـن المعتمـر بن سـليمان عن أبيه قـال: (إن الرجل ليذنب الذنب في السر فيصبح عليه مذلته)[2].

- **التاسـع عشر**: قال أبو عبيد السري: (النفاق خبث السريرة، فاتـق الله ﷻ أن يـرى النـاس أنـك تخشـى الله ﷻ وقلبـك فاجر[3].

- **العشرون**: قال الحسن: (ذم الرجل لنفسه في العلانية مدح لها في السريرة، وقالوا: من أظهر عيب نفسه فقد زكاها[4].

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٦٩-٧٠).

(٢) أسباب العقوبات وأنواعها، لابن أبي الدنيا: (ص ٥٨).

(٣) تاريخ دمشق: (٥/ ٨٦).

(٤) العقد الفريد: (١/ ٣٣٣).

• **الواحد والعشرون:** عن قتادة رحمه الله تعالى قال: (والله إن عليك يا ابن آدم لشهودًا من ربك فراقبهم، وآثر الله في سرائرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية)[١].

• **الثاني والعشرون:** عن الربيع بن خثيم أنه كان يقول: (السرائر السرائر اللاتي يخفين على الناس وهي عند الله بواد. قال: ويقول: التمسوا دواءهن. قال ويقول: ودواؤهن أن تتوب ولا تعود)[٢].

• **الثالث والعشرون:** كان الشافعي رحمه الله تعالى يقول: (ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من العمل الصالح فيما بينه وبين الله ﷻ، ولا يعتمد على العلم فقط، فإنه قليل الجدوى في الآخرة)[٣].

• **الرابع والعشرون:** عن سلام بن أبي مطيع قال: (ما كان يونس بن عبيد بأكثرهم صلاة ولا صوماً، ولكن والله ما حضر حق من حقوق الله إلا وهو متهيء له)[٤].

---

(١) العظمة، لأبي الشيخ: (١/ ١٨٠).
(٢) الزهد، للإمام أحمد: (٥/ ٤٨).
(٣) العهود المحمدية: (١/ ٢٦٦).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١٩).

- **الخامس والعشرون:** قال يحيى بن معاذ: (النسك هو العناية بالسرائر، وإخراج ما سوى الله ﷻ من القلب)[1].

- **السادس والعشرون:** عن الفضيل بن عياض قال: (لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة)[2].

- **السابع والعشرون:** يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها وحسرة عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تبلى السرائر)[3].

(١) ذم الهوى، لابن الجوزي: (ص ٦٩).
(٢) الحلية: (٨/ ١٠٣).
(٣) روضة المحبين: (ص ٢٨٠).